مقدّمة عامّة

جيوزيبينا دي سيموني
كلّيّة اللاهوت الحبريّة في إيطاليا الجنوبيّة، فرع سان-لويس، نابولي.
أستاذة في فلسفة الدين وفي اللاهوت الأساسيّ
مديرة معهد الفلسفة ومنسّقة الاختصاص في اللاهوت الأساسيّ.
المنسّقة العامّة للشبكة اللاهوتيّة المتوسّطيّة.

تتناول مداخلتي دور الشبكة اللاهوتيّة المتوسِّطيَّة، والتزامنا في نسج شركةٍ كنسيّة، وبناء حوض بحرٍ أبيض متوسّطٍ يسوده السلام. فالشبكة اللاهوتيّة المتوسّطيّة ليست جمعيّةً ولا هيئةً، بل شبكةٌ تجمع أشخاصًا ومؤسّساتٍ ومراكز تعليمٍ لاهوتيّ، اختارت جميعها أن تعمل معًا في مواجهة التحدّيات التي يطرحها حوض البحر الأبيض المتوسّط على فهم الإيمان في عصرنا.

كان الدافعُ الأول نابعًا من خطاب البابا فرنسيس في نابولي، حزيران ٢٠١٩. فقد أحسّت مبادراتٌ قائمة فعلًا في حوض البحر الأبيض المتوسّط بالحاجة إلى التحاور بأسلوبٍ أخويٍّ بسيط. ماذا تعني صناعة اللاهوت في سياق حوض البحر الأبيض المتوسّط؟ وكيف يمكن التفكير في هذا الحوض بوصفه مكانًا لاهوتيًّا؟ هذان هما السؤالان اللذان التقينا حولهما، سؤالان ينبعان من واقعٍ معيش، ولذلك كانا أكثر إلحاحًا وأصدق تعبيرًا عن الحقيقة. بدأنا نلتقي للتفكير معًا في المعايير التي حدّدها البابا فرنسيس في تصدير «فرح الحقيقة» وفي كلمته التاريخيّة في نابولي، مستثمرين كفاءاتٍ ورؤًى متنوّعة، بل أيضًا التجارب المعيشة التي أتينا منها وحملناها معنا باستمرار في نسج هذا الفكر المتوسّطيّ.

لقد رافقتنا صورة الحياكة منذ البداية: خيوطٌ متنوّعةٌ تُضفر لتشكّل نسيجًا واحدًا، تزداد ألوانه بريقًا وتوهّجًا في تداخلها. لذلك، كان من الطبيعيّ أن نطلق على ما كان يتبلور أمامنا اسم "الشبكة". ليست شبكة عنكبوتٍ معقدّة ترمي إلى الابتلاع والاحتواء، بل شبكةٌ تجمع شملنا وتسندنا، على الرغم من حاجتها إلى الشدّ والدعم من جهاتٍ متعدّدة، وإلى الجرأة في إلقاءها ؛ شبكةٌ يُعاد عقدها المرّة تلو الأخرى لأنّها معرّضة لخطر التمزّق، لكنّها ما إن تُرمَّم بصبرٍ، حتّى تعود أقوى ممّا كانت عليه. كان هناك، ولا يزال، في هذا التعريف، حدسٌ، بل حلمٌ لم نتخلَّ عنه.

وفي هذا المسار، أخذت مساحة التفكير تتّسع شيئًا فشيئًا. فقد مضينا نبحث في الواقع الحيّ للمبادرات القائمة فعلًا ومن خلال الجهود التي تبذلها مؤسّساتنا في البلدان التي تعمل فيها، عن معايير صناعة اللاهوت في حوض البحر الأبيض المتوسّط. وهكذا، انبثقت من الحوار المعيش فيما بيننا فكرةُ إطلاق بيانٍ نعبّر فيه عمّا يعنيه اللاهوت بالنسبة إلينا، وعن كيفيّة تبلوره كلاهوتٍ «سياقيٍّ بالأساس». كما سعينا من خلال هذا البيان إلى توضيح كيف أنّ حوض البحر الأبيض المتوسّط لا ينفكّ يُسائلنا، نحن اللاهوتيّين واللاهوتيّات، في صلب عملنا.

كان تجديد اللاهوت يرتبط بالنسبة إلينا بإصلاح الكنيسة الذي يقتضيه المسار السينودسيّ، وبتعزيز إنسانيّةٍ جديدةٍ على نطاقٍ أوسع. فلم يكن بوسع اللاهوت أن يبقى منعزلًا، مدافعًا بغيرةٍ عن نقاء منهجه، بل كان لزامًا عليه أن يحضر بين الناس، وأن يساعد في قراءة التاريخ بوصفه تاريخ خلاصٍ، ليسهم في صون المعنى الأصيل للإنسان وإبرازه، وتحديدًا حيثما يُمتَهَنُ الإنسان وتُنكَر كرامته.

وقد أطلقنا على هذا العمل عنوان: «البيان من أجل لاهوتٍ من حوض البحر الأبيض المتوسّط». لم يكن الهدف عرضَ منظومةٍ فكريّةٍ لاهوتيّة، بل محاولة رسم مسارٍ، وتحديد معايير نتحاور بشأنها. فعبارة «من المتوسّط» تعني أنّ اللاهوت يولد من الإصغاء، وأنّ الأمكنة ليست مجرّد خلفيّةٍ محايدةٍ لفهم الإيمان، بل هي فاعلة فيه، كحال الخبرات الإنسانيّة وحياة كنائسنا في حوض البحر الأبيض المتوسّط.

لقد أردناه لاهوتًا «انغماسيًّا»، يُسهم في إخراج كلّ الخير إلى النور، ذلك الخير الذي لا ينفكّ يُزهر - بفضل التجسّد والفصح - حتّى في أحلك السياقات وأكثرها قتامة. وأردناه أيضًا لاهوتًا «مُناضلًا»، يقف في الخطوط الأماميّة للدفاع عن المستضعفين، ولا سيّما الأقليّات، لاهوتًا قادرًا على أن يمنح صوتًا لمن لا صوت لهم، ليسهم معهم في بناء عالمٍ أفضل.

نُشر «البيان» خلال اللقاءات المتوسّطيّة في مرسيليا، في أيلول/ سبتمبر ٢٠٢٣، بعدّة لغاتٍ على المواقع الإلكترونيّة لجميع المؤسّسات الموقّعة عليه، ثمّ أُعلن عنه لاحقًا خلال اللقاء مع البابا في «قصر فارو» (Palais du Pharo). وفي الأيام نفسها، أبصرت «الشبكة اللاهوتيّة المتوسّطيّة» النور، وظهر معها اختصارها (RTMed) وشعارها الذي يجسّد حوض البحر الأبيض المتوسّط من منظورٍ مختلف.

في الأشهر التي تلت، تمكّنّا من أن نلمس، بدهشةٍ وتأثّر، القوّة التوليديّة لهذا «البيان» الذي حظي بترحيبٍ حماسيّ، وتلقّفته جهاتٌ عدّة، فجرى عرضه ومناقشته في سياقات متنوّعة.

فلم يكن هذا النصّ ملكًا لنا وحدنا، بل كان ملكًا للجميع؛ ملكًا لكلّ مَن كان يبحث عن طريقةٍ للتفكير وللتجذّر في الواقع، وعن أسلوبٍ لتصوّر العلاقة بين الثقافات، والأديان، والبشر، وتواريخهم، أسلوبٍ يشرّع الأبواب أمام اللقاء، ويُطلق العنان لأفضل الطاقات.

كان «البيان» استجابةً للتطلّع إلى «لاهوتٍ من أجل الحياة»، لاهوتٍ للجميع، ذي بُعدٍ شعبيّ، يفوح بعبق شعب اللّه السائر، ويحمل تعب وآمال إنسانيّةٍ تتوق إلى بلوغ ملئها. إنّ ما تمّ الإقرار به في «البيان» لم يكن مجرّد نموذج لاهوتيّ جديد، بل نموذجٌ فكريّ ومعرفيّ بامتياز: طريقةٌ لفهم التفكير والمعرفة في سياق «الثورة الثقافيّة» التي ينشدها البابا فرنسيس.

وهكذا، انفتح أمامنا مسارٌ بحثيٌّ إضافيّ: الحاجة إلى تفكيرٍ معمّقٍ في المنهج. ولم تكن هذه مسألةً تقنيّة، بل مسألةَ معنًى ومنظور: كيف يُبنى الفكر اللاهوتيّ ضمن منطق التجسّد والفصح؟ كيف ندرك الطابع العابر للتخصّصات في اللاهوت؟ كيف يتبلور لاهوتٌ يُبنى على الإصغاء للتجارب المعيشة؟ وما الذي يتغيّر فيه، أو يتجلّى من خلاله بوضوحٍ أكبر؟

لقد انخرطنا في مسارٍ بحثيٍّ التزمنا فيه، مرّةً أخرى، بالعمل عبر مختلف ضفاف المتوسّط. فعقدنا على مدار سنةٍ لقاءاتٍ وندواتٍ استعنّا فيها بخبراء بارزين، وصولًا إلى «مختبر التوليف» في مالطا خلال صيف عام ٢٠٢٥. وهكذا، توافرت لدينا مادّةٌ وافرة شكّلت بحدّ ذاتها جوهر النصّ المنهجيّ الذي عكفنا على إعداده في الأشهر اللاحقة. كانت الغاية توسيع الأفق، واحتضان منظوراتٍ إبستمولوجيّةٍ متنوّعة، لا لتُطرَح كبدائل يحلّ بعضها مكان بعض، بل لتتفاعل ضمن «توتّرٍ خصبٍ» يتيح فهمًا أوفى للواقع المعقّد الذي يُحيل إليه المتوسّط باستمرار.

ولم تكن ممارسة التأليف هذه تنظيرًا بحتًا، بل صيغت من وجوهٍ، وأشخاصٍ، وتواريخَ، وحساسيّاتٍ ثقافيّةٍ كان لا بدّ من منحها صوتًا، والاعتراف بحقّها الكامل في المواطنة، لكي ننسج معها «كيفيّة» سير عملنا. إنّ المنهج الذي أردنا التحدّث عنه، هو المنهج عينه الذي كان نصّنا يتبلور انطلاقًا منه شيئًا فشيئًا.

تتّسم «الملاحظات في المنهج» ببنيةٍ أساسيّةٍ تستعيد بنية «البيان»؛ إذ تنطلق من الإقرار بحوض البحر الأبيض المتوسّط مكانًا لاهوتيًّا، مبرزةً تعقيده الذي يستلزم منهجًا ملائمًا: فكرًا قادرًا على التعبير عن التنوّع، ومكوّنًا من مقارباتٍ متباينة وحساسيّاتٍ ثقافيّةٍ مختلفة، يجمع بين الشرق والغرب. ويستمدّ هذا المنهج قوّته من الطابع الحواريّ، في حين يمثّل الـ«بينَ» مكانَه الأكثر أصالة. وإذا كان معيار الفصح الحيّ هو المعيار الذي تُقرأ وفقه الحقيقة، ففي الـ«بينَ» يُظهر هذا المعيار خصوبته الكاملة؛ وفي الـ«بينَ» يمكن تلمّس الحضور الفاعل للفصح، كنورٍ لطيفٍ ينبثق من اللقاء، فيُنير تاريخ البشر ووجودهم.

وفي مساحة الـ«بينَ» وحدها يمكننا أن نحيا فعلًا مسيرة البحث عن الحقيقة، وأن نصون الرجاء، ونبني عالمًا أكثر عدلًا. فالأمر لا يقتصر على مجرّد «الكينونة في علاقة»، بل يتعدّاه إلى حتميّة العلاقة لكينونة وحياة كلّ فردٍ، وكلّ شعبٍ، وكلّ ثقافةٍ، وكلّ إيمان. فلا كينونة من دون الآخَر. ولا كينونة دون «تبادل المواهب» الذي تتيحه العلاقة، ذاك الذهاب والإياب من الواحد إلى الآخَر، ومن ضفّةٍ إلى أخرى، كما هي الحال في المتوسّط. إنّ وعي التوتّر الديناميكيّ الكامن في الـ«بينَ»، يعني إدراك ما تتطلّبه العلاقة من عناء، واستحالة اختزال فرادة الآخر. لكنّه يعني في الوقت عينه نشوءَ حسٍّ سليمٍ بالحدود، والانفتاحَ على غنى تمازجٍ حتميٍّ علينا أن نتعلّم كيفيّة احتضانه ورعايته بوعي. لقد وصف البابا فرنسيس المتوسّط بأنّه «بحر التلاقح» (*mare del meticciato*)؛ فالتلاقح هو سِمة الإنسانيّ وهو الغنى الذي يولد من رحم العلاقة، ولا يمكن للإنسان أن يبني ذاته بأصالةٍ إلّا في رحابها.

إنّ الـ«بينَ» هو فضاء الحوار بين الثقافات والأديان، وهو سِمة انفتاحٍ مسكونيٍّ يحتضن الإنسانيّة بكلّ غنى تعبيراتها؛ وهو أيضًا فضاء حوار المعارف وتداخل التخصّصات. لكنّه كذلك الـ«بينَ» الكامن في الطرقات، وفي واقع الحياة الملموس. فما من معرفةٍ إلّا وتنبثق من صميم الحياة، والمعرفة اللاهوتيّة لا تخرج عن هذا المبدأ. فأين عسانا نلتقي بتعبير اللّه عن ذاته إن لم يكن في عناء البشر وآمالهم؟ والـ«بينَ» هو كذلك سمة فكرٍ لاهوتيٍّ «منخرطٍ» و«منغمسٍ» في التاريخ، منحازٍ إلى المستضعفين، وإلى الساعين إلى العدالة، وإلى ناسجي أواصر الأخوّة.

لقد أطلقنا على هذا النصّ عنوان «الملاحظات في المنهج»، لأنّه لا يدّعي التنظير لمنهجٍ أوحد؛ بل يطمح بالأحرى إلى المساعدة في التفكير في المعايير التي تنبثق من التجربة. إنّه أشبه بملاحظاتٍ دُوّنت على طول الطريق، لكي يواصل الطريق انفتاحه، ولتولد مساراتٌ جديدة من رحم الحوار. إنّه، في جوهره، نصٌّ مطروحٌ للنقاش.

تحمل «الملاحظات في المنهج» توقيع المؤسّسات البحثيّة والتنشئة اللاهوتيّة المنخرطة، بدرجاتٍ متفاوتة، في عمل الشبكة اللاهوتيّة المتوسِّطيَّة. وقد طُبعت شعاراتها الثلاثة والعشرون على الغلاف الداخليّ. وهي مؤسّساتٌ ناشطةٌ على ضفاف المتوسّط الخمس: من الشرق الأوسط إلى البلقان، فأوروبا، والمغرب العربيّ، وصولًا إلى البحر الأسود. يتوفّر النصّ حاليًّا بخمس لغاتٍ مختلفة: الإيطاليّة، والإسبانيّة، والفرنسيّة، والإنجليزيّة، والعربيّة، على أن تُضاف إليها ترجمةٌ كرواتيّة في القريب العاجل. إنّه تعبيرٌ عن متوسّطٍ ينطق بلغاتٍ عدّة، تُعَدّ جميعها ثمينةً ولا غنى عنها لفهمه.

تكتسب الترجمة العربيّة، التي حقّقتها جامعة القدّيس يوسف في بيروت، قيمةً خاصّة؛ إذ تأتي من لبنانَ المنهك بالحرب والواقع فريسةً لمصالح القوى النافذة في العالم. فهذه الترجمة تعبّر عن فكرٍ لاهوتيٍّ يُسهم في إبقاء شعلة الرجاء حيّة، في متوسّطٍ قادرٍ على أن يُزهر من جديد، بفضل قدرة شعوبه على استشراف مستقبلٍ يسوده السلام.

لقد اخترنا نشر «الملاحظات في المنهج» اليوم، بالتزامن مع أيّام اللقاءات المتوسّطية في برشلونة، لنؤكّد، مرّةً أخرى، لرغبتنا في أن نكون في صلب مسيرة بناء نسيجٍ كنسيٍّ لحوض البحر الأبيض المتوسّط.

إنّ نشر هذه «الملاحظات»، إلى جانب «البيان»، يمكن أن يشكّل أرضيّةً بحثيّةً قابلةً للبلورة في سياقاتٍ مختلفة، وحول قضايا محدّدة يطرحها حوض البحر الأبيض المتوسّط في هذه اللحظة التاريخيّة الدقيقة. فرغبتنا تكمن في المساهمة في لاهوتٍ منخرطٍ في الالتزام بصون كرامة الإنسان، وهو ما دعا إليه البابا لاون بقوّة منذ بداية حبريّته وفي رسالته العامّة «إنسانيّة عظيمة» (*Magnifica Humanitas*). نحن نحلم بأن نتمكّن، من خلال الشبكة، من تعزيز مسارات تنشئةٍ لاهوتيّةٍ على مستوى المتوسّط، تتيح الانغماس في التجارب الثقافيّة والكنسيّة المعيشة لبلدانٍ مختلفة، بغية نسج علاقاتٍ وتبادلات، وإنضاج حسّ المواطنة المتوسّطيّة. نحلم بلاهوتٍ يعزّز اللقاء بين ضفّتي المتوسّط، فيُسهم في نزع السلاح من القلوب، وحياكة خيوط السلام والأخوّة. وليس هذا مجرّد حلم؛ فمبادراتٌ من هذا القبيل تتحقّق بالفعل بفضل الروابط التي نسجتها الشبكة: مبادراتٌ لا تُقدَّر بثمن بالنظر إلى الأثر الذي تتركه في قلوب مَن يعيشونها.

تصف وثائق كنيسة «العائلة المقدّسة» (*Sagrada Familia*) صليب برج يسوع بأنّه صليبٌ كبير بأربعة أذرع، يتوسّطه حَمَلُ اللّه. «سيكون الصليب من البلّور؛ في النهار سيعكس نور الشمس، وفي الليل سيسلّط حُزَمًا من النور على المدينة». نحن مقتنعون بأنّ اللاهوت مدعوٌّ، هو الآخر، للمساهمة في بناء كنيسةٍ تعمل، في المسيح يسوع، كسرٍّ مصالحةٍ في متوسّطٍ أدمته حروبٌ كثيرة؛ كنيسةٍ قادرةٍ، عبر استمدادها النور الآتي من المسيح يسوع، على تسليط حُزَمٍ من النور على مدننا، وتوليد الرجاء.